إسماعيل شموط : نحن الفلسطينيون الجدار الأبقى

مثقفون ما برحوا يستذكرون رحيل "مناضل الريشة" ورائد الفن التشكيلي

يوسف الشايب

رام الله- "نحن الفلسطينيون الجدار الأبقى". لم تكن هذه آخر كلمات إسماعيل شموط، رائد الفن التشكيلي الفلسطيني، الذي رحل عنا، بل كانت من كلماته التي تحفر عميقاً في الوجدان، وتعبر عن مشوار طويل حفره بريشته التي لون فيها الجرح الفلسطيني بالأمل.وما انفك مثقفون فلسطينيون يستذكرون شيخ التشكيليين الفلسطينيين بعد مرور نحو أسبوعين على رحيله.

ويؤكد هؤلاء أن شموط رحل ، لكن لوحاته باقية، كما هي فلسطين، التي خرج من رحم نكبتها، وذكراه باقية كرائحة البرتقال، التي طالما تغنت لوحاته ببياراتها .. رحل شموط، بعد "رحلة جبلية صعبة" مع بياض اللوحة المخضب بالجراح، استمرت أكثر من نصف قرن، فمن اللد التي ولد فيها العام 1930 إلى مخيم اللاجئين بخانيونس بقطاع غزة، الذي شهد أول معرض له العام 1953، قبل رحيله إلى القاهرة ليدرس الفنون، وفي العام 1954 كان معرضه المشترك مع زميلته وزوجة المستقبل، تمام الأكحل، وكان الحدث الأبرز ربما في حياته، حيث افتتح الزعيم المصري الراحل، جمال عبد الناصر، هذا المعرض.

في العام 1959 تزوج شموط والأكحل. وبعدها بعشرة أعوام انتخب أول أمين عام لاتحاد الفنانين التشكيليين الفلسطينيين، وفي العام 1971 انتخب أول أمين عام لاتحاد الفنانين التشكيليين العرب.. ولم تنته الحكاية هنا، فعشرات المعارض الناجحة آخرها "السيرة والمسيرة"، ومؤلفات عدة، وجوائز كثيرة، كانت عناوين فرعية في حياة شموط، الذي كانت فلسطين عنوانه الرئيس، كان عنواناً حاضراً في ذاكرة شعبها على الدوام.

رحيله في هذا الوقت الصعب، ضربة جديدة يصنعها القدر للشعب الفلسطيني، وهذا ما يؤكده يحيى يخلف، رئيس المجلس الفلسطيني الأعلى للتربية والثقافة والفنون الذي يؤكد أنه "بغياب شموط، نعيش خسارة كبيرة، ليس فقط للثقافة الفلسطينية، بل للقضية بشكل عام، فهو علاوة على كونه أحد رواد الفن التشكيلي الفلسطيني، إن لم يكن الرائد الأول، كان أول فنان فلسطيني عبر عن نكبة العام 1948، ومأساة الفلسطينيين داخل الوطن وفي الشتات، وأحلامهم، كما استطاع أن يلفت نظر الوجدان العربي إلى المعاناة الفلسطينية عبر لوحاته ورسوماته، في الأعوام الأولى من خمسينيات القرن الماضي، خاصة بعد أن افتتح عبد الناصر معرضه الأول خارج فلسطين، كما كان من أوائل المثقفين العاملين في منظمة التحرير الفلسطينية، حيث أسس دائرة للفنون، التي لم تتعاط الفن التشكيلي فحسب، بل مختلف المجالات الثقافية والفنية، بما في ذلك السينما.

ويضيف يخلف ان أعمال شموط رافقت الثورة الفلسطينية، ومراحل الكفاح المسلح، وكانت على الدوام تعبر عن الجوانب الحضارية من كفاح الشعب الفلسطيني .. في بيروت، وبالتحديد في دار الكرامة، التي أسسها، أحرقت لوحاته في قصف إسرائيلي للمكان خلال اجتياح بيروت، وبعد احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة العام 1967، سرقت قوات الاحتلال عدداً من لوحاته المعروضة في أماكن عدة بمدينة نابلس .. أذكر أنه حين قدم إلى فلسطين، في تسعينيات القرن الماضي، حاول جاهداً استعادة لوحاته المسروقة، لكن من دون طائل.

ويشدد يخلف على ضرورة البحث عن طرق لتكريم الراحل شموط، رغم حرص المؤسستين السياسية والثقافية الفلسطينية على تكريمه في حياته، وربما يكون ذلك عبر تأسيس أكاديمية للفنون باسمه، أو إطلاق اسم إسماعيل شموط على قاعات عرض في بعض المراكز الفنية، أو ربما عبر جائزة سنوية للفن التشكيلي تحمل اسم رائد الفنون التشكيلية الفلسطينية.

واستقبلت قاعة الحلاج في رام الله، المعزين بشموط، برعاية نخبة من المؤسسات الثقافية والفنية الرسمية والأهلية الفلسطينية.

ويبدو أن تعبير "الخسارة الكبيرة" هو الأنسب لرحيل الفنان شموط، وهو ما وجد فيه الفنان خالد الحوراني وصفاً يقترب من فاجعة الرحيل، حيث يقول: قدرنا أن نودعه في هذه الأيام الصعبة .. هو فنان كبير ترك بصمته العالية على الفن الفلسطيني والعربي .. رحيله خسارة كبيرة، ويكفيه أنه أول من صور الهجرة والتهجير بريشته، حيث لا كاميرات، ويكفيه أنه نقل القضية الفلسطينية لكل مكان في العالم، واستمر يناضل بريشته حتى رحيله.

وتكمن خصوصية شموط، حسب الحوراني، في أنه "من أبرز رواد الفن التشكيلي الفلسطيني، ومن أهم من أسس للفن المعبر عن القضية، وساهم عبر عمله في منظمة التحرير في نقل القضية الفلسطينية، وعبر الفن، إلى العالم بأسره، سواء عبر لوحاته ومعارضه، أو عبر استضافة فنانين عالميين، وتجنيدهم لخدمة عدالة القضية الفلسطينية .. أسلوبه المميز والخاص، والذي عمل على تطويره، عبر العقود، جعله من أهم الفنانين العرب، وليس الفلسطينيين فحسب.

ولا يزال يتذكر الفنان نبيل عناني، المرة الأولى التي التقى فيها بالراحل شموط، وكان ذلك في العام 1965، في مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في شعفاط، ويقول: وقتها كان أول لقاء لي به، وبدأ يعلمني، وقبل أن أدرس الفن، كيف أشد الخط، وغير ذلك من أساسيات الفن .. كان متواضعاً، وقائداً من الدرجة الأولى، ولعل قدرته على توحيد الفنانين الفلسطينيين في إطار الاتحاد العام، أكبر دليل على ذلك، ويكفي أنه ربما يكون أول فنان فلسطيني وظف فنه في خدمة القضية.

حكايات على لسانه

وكثيرة هي المقابلات الصحافية التي أجريت مع شموط، والتي تحدث فيها عن مراحل ومحطات في حياته، منها تلك التي أجراها معه الصحافي السوري وحيد تاجا، وقال فيها: أحببت الرسم منذ نشأتي وطفولتي في أواسط الثلاثينيات، وفي المدرسة تعلمت الرسم والأشغال اليدوية، وكنت أنتظر هذا الدرس بفارغ الصبر.. كان أستاذي "داود زلاطيمو" عاشقا للفن (من رسم وأشغال يدوية وموسيقى وإنشاد) وكانت موهبتي في الصغر بارزة، بحيث جعلته يخصني برعاية خاصة، وراح يشجعني، ويمدني بالمواد الفنية المتيسرة في ذلك الحين.

ومدينة "اللد"- مسقط رأسي، محاطة ببساتين وحقول، وسهول زاخرة بالأزهار الجميلة عديدة الألوان والأشكال- كان لها أكبر الأثر عليّ، وعلى إنتاجي الفني، وكانت رسومي ولوحاتي التي رسمتها في "اللد" لوحات طفل، ثم صبي، حملت مواضيع الجمال والطبيعة الجميلة، قبيل عام 1948، أي قبيل النكبة مباشرة،

صارت تشدني مواضيع لها علاقة بمجريات الأحداث في فلسطين؛ فرسمت صور المجاهدين والقادة، كان منهم الحاج أمين الحسيني، وبعض القادة العرب.. وحدثت النكبة، وكنت أحد ضحاياها الذين عاشوا المأساة بكل أبعادها، وكان لها التأثير الأكبر على مجرى حياتي وعلى توجهي الفني.

ويقسم شموط رحلته الفنية إلى مراحل فيقول: المرحلة الأولى في الخمسينيات: مرحلة تداعيات المأساة، وهي مرحلة اعتمدت الأسلوب الواقعي البسيط، من لوحاتها: "إلى أين؟"، و"سنعود" و"بداية المأساة" و"جرعة ماء" و"ذكريات ونار"... وغيرها.

المرحلة الثانية في الستينيات: وهي مرحلة انطلاق الفلسطيني من حالة الحزن إلى حالة التحفز، من لوحاتها: "عروسان على الحدود" و"طاقة تنتظر" و"حتى الفجر" و"رقصة النصر"... وغيرها؛ حيث تألقت الألوان في اللوحة، وأصبح الأسلوب تعبيريًّا رمزيًّا، إضافة إلى واقعيتها.

المرحلة الثالثة في أواسط الستينيات: وهي مرحلة المقاومة الفلسطينية المسلحة، وما أشاعته من أجواء جديدة في الحياة الفلسطينية، مليئة بالأمل والفرح والحركة، ومن لوحاتها: "مغناة فلسطين" و"اليد الخضراء" و"الحياة المستمرة" و"الربيع"... وغيرها، وفي هذه المرحلة تجلت الحركة والتناغم اللوني والخطي.

المرحلة الرابعة في أواسط السبعينيات: وهي التي شهدت مأساة المخيمات "تل الزعتر وجسر الباشا" والعدوان الإسرائيلي ضد الفلسطينيين في لبنان، ولوحاتي في هذه المرحلة عادت لتتناول موضوع الحزن مرة أخرى، لكن مع بعض العنف، باستعمال الألوان الحادة، في مجموعة اللوحات التي أنتجتها العام 1976 تحت عنوان "تل الزعتر"، والتي رسمتها بالألوان المائية في ظروف صحية معينة، وكنت يومها خارج حدود الوطن العربي، وقد ظهر عنصر جديد في لوحاتي هو عفوية التعبير وغياب بعض عناصر الواقعية.

المرحلة الخامسة: وهي مرحلة غلب عليها الاتجاه الرومانسي- وكنت قد انتقلت للعيش في الكويت بعد أكثر من عشرين عاما عشتها في بيروت - وحلمت بانتفاضة الحجر، وعبرت عن ذلك بلوحتين أنتجتهما العام 1984 (قبل الانتفاضة الأولى التي تفجرت العام 1987).

ولقد أجبرتنا الظروف في الكويت العام 1992 على الانتقال إلى ألمانيا والعيش فيها لمدة سنتين، ثم جئنا إلى الأردن التي نعيش فيها، وبحكم هذا التنقل، وظروف المتغيرات على القضية الفلسطينية، لم يكن إنتاجي فيها مستقرا من حيث الموضوع أو الشكل.

وحول واقع الفن التشكيلي الفلسطيني، قال شموط: كان الاتحاد العام للفنانين التشكيليين الفلسطينيين بفروعه الستة (في فلسطين، ولبنان، وسورية، والكويت، وقطر، والإمارات) عاملا مهمًّا في نشاط الفنانين التشكيليين الفلسطينيين؛ فقد كان الاتحاد يقيم وينظم المعارض والندوات واللقاءات العديدة بحكم علاقته العربية والدولية.

هذا الاتحاد تعرض لضربتين قاصمتين: الأولى في لبنان العام 1982 إثر العدوان والاجتياح الإسرائيلي، والثانية في الكويت إثر ما سُمّي بأزمة الخليج، وما نتج عنها من تشريد أبناء الجالية الفلسطينية في الكويت؛ فمعظم الفنانين التشكيليين الفلسطينيين الذين كانوا يعيشون في لبنان والكويت مشتتون اليوم في بقاع جديدة في العالم، والفرع الوحيد الذي لا يزال نشطًا هو فرع الاتحاد في سورية، ولا نستطيع الادعاء بأن الاتحاد لا يزال قائمًا.

والوضع داخل أراضي السلطة الفلسطينية وفي المناطق التي لا تزال ترزح تحت الاحتلال الإسرائيلي صعب جدًّا، ولا يوفر للفنان الشعور بالاستقرار النسبي المطلوب؛ كي تنتعش حركة الفن التشكيلي فيها.

إسرائيل تطارد لوحاته

كان هو يعرف وكانت إسرائيل تعرف أيضا أن الفن لا يقل مضاء عن السلاح في حرب قُدر لها أن تطول كثيرا وأن تعاني ضحيتها ما لم تعاني ضحية أخرى في التاريخ المعاصر .. لاحقته الطائرات من بلد إلى أخر لاحقت لوحته في نابلس والقدس وفيما بعد في بيروت ورام الله، لاحقت نار الإبداع والرموز المخبأة في اللوحة والجدارية لاحقته كثيراً غير أنها لم تفلح يوما في اغتيال ربيع فلسطين الذي لم يذبل يوما في لوحاته.

وعن ذلك قال اسماعيل شموط، في حوار مع فضائية الجزيرة، العام الماضي: لإسرائيل مواقف غريبة، وأستغرب تجاهل العالم لمثل هذه المواقف، فهي لم تحارب فقط اللوحة الفلسطينية بل حاربت اللون الفلسطيني، أتذكر أن زميلنا الفنان فتحي الغبن من غزة، أُعتقل وسجن بسبب معرض قال انه استعمل ألوان العلم الفلسطيني في رسم لوحاته .. حتى الألوان علينا أن نختارها وفق ما تريد إسرائيل، وهذا ما لا نرضاه.. لوحاتي سرقت من مكتبة البلدية في نابلس، بعد أن مُنعت من العرض .. جاء الحاكم العسكري يومها، وحسب ما قاله من تواجدوا وقتها، أنه أصدر أمراً بمصُادرة اللوحات، وفي حادثة أهم من هذه كان لي لوحتان مهمتان عرضتا في بيروت وعرضتا في القدس ونابلس وعمان، واحدة اسمها ربيع فلسطين وواحدة اسمها النكبة وهما لوحتان كبيرتان، أطلق جنود الاحتلال الرصاص عليهم، بعد اقتحام مكتب جامعة الدول العربية في القدس، إثر احتلالها العام 1967.. لا شك أن خوف الإسرائيليين من اللوحة يعني أن اللوحة الفلسطينية كان لها فعل وتأثير كبيرين.

Powered by: joos.co
© جميع حقوق النشر محفوظة لجريدة الغد 2018